الفصل الرابع والعشرون بعد المئة

الدراسة والتدريس

الكتاتيب :

وفي العربية لفظة (الكتّاب) ، ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة . وهي من الألفاظ العربيـــة المستعملة في العهود الأولى من الاسلام . وعندي انها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية ،وهي في معنى بيت (ها سيفر) Beth Ha-Sepher أي (بيت الكتّاب) في العبرانية . وقد كان العبرانيون يطلقونها عـــلى المدارس التي تدرس القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة ، تمييزاً لها عن المدارس التي تعلم الديانة والعبرانية والمعارف التي لها علاقة بالديانة . ويطلقون عليها (بيت هامدراش) Beth Ha-Midrash أي (بيت المدراش) ، و (بيت ها تلمود) ، أي (بيت التلمود) في بعض الأحيان[1] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذكروا انهـم كانوا من المعلمين في الجاهلية وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة ، منهم على سبيل المثال : (بشر ابن عبد الملك السكونـــي) ، أخو (أكيدر) صاحب (دومـــة الجندل) ، و (سفيان بن أمية بن عبد شمس) ، و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة)

---

١ Hastings, A Dictionary of Christ. and the Gospels, I, p. 222.

و(عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد) ، وقد كان يسمى (الكاتب) ،و (غيلان ابن سلمة بن معتب الثقفي) وهو مخضرم[1] ، مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين .

وقد ورد ان الرسول أمر (عبدالله) واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية، بأن يعلم في الكتاب بالمدينة[2] . كما ورد ان (جفينة) ، وهو من نصارى الحيرة ، جاء المدينة فصار يعلم الكتابة بها[3] . وورد في رواية ان (علي بن أبي طالب) اختلف الى الكتّاب ، فتعلم الكتابة به وله ذؤابة وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . وورد ان رجلاً نزل بوادي القرى ، وعلّم الخط بها[5] . وورد ان غلاماً جاء « يبكي الى أبيه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث !! يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً »[6] . واذا صح هذا الخبر ، نكون قد عثرنا على كلمة (المعلم) بالمعنى المفهوم منها في الوقت الحاضر في الأيام الأولى من ظهور الاسلام .

وورد أن (عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية) ، كان ممن أسر يوم بدر ، فأمره الرسول أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ، وبخليه لسبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار . وكان كاتباً محسناً[7] . غير أن الموارد الأخرى ، تذكر أنه كان قدم على رسول الله مهاجراً ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : الحكم . فقال : أنت عبدالله . فغير رسول الله اسمه[8] . وتذكر أنه أمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً . وتذكر أنه قتل يوم بدر شهيداً . أي إن اسلامه كان قبل يوم بدر . ولكن أكثر الروايات تذكر أن وفاته تأخرت[9].

وذكر بعض أهل الأخبار،أن المدينة كانت متأخرة بالنسبة الى مكة في الكتابة

---

١ المحبر (ص ٤٧٥) ، الاعلاق النفيسة ، لابن رستة (٢١٦) .
٢ ابن حزم ، جمهرة (٧٣) .
٣ الطبري (٥/٤٢) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) .
٤ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ، للشيخ المفيد ، النجف (٢/٦٦) .
٥ فتوح البلدان (٤٧٧) .
٦ امتاع الاسماع (١/١٠١) .
٧ المشرق ، السنة العاشرة (٤٧٨) .
٨ الاستيعاب (١/٣١٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ الاصابة (١/٣٤٣) ، (رقم ١٧٧٧) .

والقراءة . بـــل ذهب بعضهم الى أنه لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابـــة[1] . وكلامهم هذا يصطدم مع ما ذكروه أنفسهم من أن (سويد بن الصامت)الأوسي ، وسعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وغيرهم ممـن أشرت اليهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كانوا من الكتّاب .

ويفهم من قول (الشمّاخ) :

كما خـــط عبرانيةٌ بيمينـــه بتيماء حبْرٌ ثم عرض أسطرا

أن هذا الشاعر كان قد زار تيماء ، وقد وقف على خط اليهود ، ورأى أحدهم وقد عرض أسطر الكتابة ودونها بيمينه[2] . وقد وصف غيره كتابة اليهود وتعلمهم الخط في مدراسهم بالمستوطنات اليهودية .

وكانوا يستعينون بصبيان الكتاب في بعض الأحيان لكتابة جملة نسخ مما يراد نشره واذاعته أو حفظه . فورد أن النجاشي الشاعر ، لما هجـا (بني النجار) من الأنصار شكوا ذلك الى حسان ، فقال قصيدة في هجائه وفي هجـاء قومه ، ثم « قال اكتبوها صكوكاً وألقوها الى صبيان المكاتب ، فـا مرّ بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسّان بالنجاشي موثقاً معهم » ، وذلك للإعتذار اليه واسترضائه[3] .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابـــة والعلوم بينهم إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادىء المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال ، كما أدت حاجـــة الديانتين الى رجال دين يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنيين، أو بين أصحاب الديانات الأخرى،الى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال، ألحقت بالمعابد ، درسوا فيها الكتب المقدسة وما وضع عليها من تفاسير وشروح، ومما يتعلق بشرحها من دراسة للغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات . وقد كان من بين هؤلاء الرجال أناس أذكياء ذوو نظر واسع ، فلم

---

١ امتاع الاسماع ، للمقريزي (١٠١/١) .
٢ ديوان الشماخ (٢٦) ، ديوان زهير (٥) .
٣ شرح ديوان حسان (ص ٢١٣ وما بعدها) (البرقوقي)

يكتفوا بحفظ ما ورد اليهم ، وبالتعصب لكل ما تلقنوه،بل تتبعوا ثقافات غيرهم وعلومهم ، ودرسوا اللغات والفلسفات الأخرى،وكوّنوا لهم آراء خاصة اعتمدت على استعمال العقل والمنطق ، فظهر النقد عندهم ، والنقد يخلق الرأي .

والبيت هو المدرسة عند الجاهليين وعند غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، فيه يتعلم الطفل ، واليه يرد المعلم لتعليم أولاد الموسرين ما يحتاجون اليه من كتابة وعلم بأجرة تدفع اليه ، وفيه قد يتعلم الطفل الكتابة من الرقيق المجلوب الذي كان له حظ من العلم . وفيه تشرف أمه على تربيته وادارته ما دام صغيراً ، ثم يشرف عليه أبوه فيلقنه شؤون الصنعة وأمور الحياة متى تجاوز الخامسة أو السابعة من عمره.

وفي البيوت والطرقات والأزقة يلعب الأطفال ، أما الشبان،فقد كانوا يتبارون بالألعاب في الساحات العامة خارج المدن ، والقرى في الغالب . يتسابقون بركوب الخيل وبالمصارعة وبالجري وبرمي السهام . وقد يخرجون الى الصيد ولا يزال أطفال جزيرة العرب يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال الجاهلية وشبانهم يلعبونها قبل الاسلام .

وقد قامت المعابد بدور فعال ناشط في نشر القراءة والكتابة . واذا كنا نجهل اليوم موقف معابد الوثنيين من تعليم القراءة والكتابة بها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر موقف (الكنيس) و (المدراش) (المدارس) عند اليهود ، و (الكنائس) عند النصارى من تنشيط التعليم وتهيئة الأطفال لتعلم القراءة والكتابة ، لخدمة الدين، أو للأغراض التثقيفية والشؤون الخاصة بالحيـــاة . وقد قام (المدراش) وقامت الكنيسة بدور فعال في تعلـــيم الناس أمور دينهـم وشرح ما ورد في التوراة وفي الانجيل الى المؤمنين بهما . فقد كان أحبار يهود (يثرب) وقرى (وادي القرى) يجلسون في المعابد ليفسروا للناس أحكام شريعة يهود .

والمدراس ، لفظة عبرانية الأصل ، هي (مدرش) Midrash ، وتعني بحث وشرح نص[1] . وقد أطلقت على المكان الذي تدرس فيه التوراة . فصار بمثابـــة المدرسة ، يقصده اليهود للتفقه فيه والتعلم ، وقـد قصده الجاهليون أيضاً ليسمعوا ما عند يهود . كما قصده المسلمون . وقد كانت لليهود جملة بيوت عبادة يجلس فيهـــا أحبارهم للافتاء ولشرح الكتب المقدسة لتلامذتهم وللنـاس . فكانت بيوت عبادة ومدارس للتعليم .

---

١ Hastings, p. 149.

وقد كان الجاهليون يسألون اليهود عن تواريخ الماضين وقصص الأولين والأنبياء والمرسلين . وعن بعض المشكلات الدينية مثل الحياة بعد الموت وأمثال ذلك مما تعرضت له اليهودية . وقد لجأ اليهم أهل مكة الوثنيون يسألونهم عن أشياء عويصة لليهود علم بها ، ليمتحنوا بها الرسول[1] .

وقد ورد في الأخبار أن « بعض اليهود قد علم كتاب العربية . وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[2].

وقياساً على ما نعرفه من تخصيص الكنائس مواضع خاصة ملحقة بالكنائس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، فإننا نستطيع أن نقول إن الكنائس التي كانت في جزيرة العرب في نجران مثلاً أو في صنعاء أو في عدن أو في قطر ، لم تكن مستثناة من هذه العادة . وإن كنا لا نملك دليلاً نستند اليه في إثبات قيام الكنائس في جزيرة العرب بتعليم الأطفال القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لكنائس العرب في العراق، فإن لدينا شواهد بينة تثبت قيام الكنائس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء الدين . وتثبت وجود مكان خاص خصص بالأطفال ليتعلموا فيه . فقد جاء في أخبار (عين التمر) أن خالد بن الوليد لما دخل حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم[3] . وذكر أن تلك البيعة كانت في النقيرة من أطراف عين التمر[4] .

وورد في الأخبار أن من أهل الحيرة من كان يتعلم العربية ، يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ، كالذي حدث لزيد والد (عدي بن زيد العبادي) ، ولابنه (عدي) ، وأن منهم من كان يتعلم الفارسية ، إذ فيها جماعة من الفرس ، ومنهم من يتعلم الإرمية ، لغة (بني إرم) ، ومنهم من تعلم العربية والفارسية وأجاد بها كتابة ونطقاً ، وتولى الكتابة بهما عند الفرس مثل (عدي بن زيد

---

١ ابن هشام (١/٢٧٤) .
٢ فتوح البلدان (٤٧٩) ، المعارف (١٩٢) ، الطبري (٣/٣٧٧) ، (دار المعارف) ، البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٠١) ، المجدل لعمرو بن متى (٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧١) .
٣ الطبري (٣/٣٧٧) (دار المعارف بمصر) .
٤ البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) .

العبادي) وابنه (زيد بن عدي) وغيرهما من آل (زيد) والعباديين نصارى الحيرة [1]

ولما فتح خالد (الأنبار) : « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشده قول الشاعر :

قومي إيادٌ لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم »[2]

وهو شعر نسب قوله الى الشاعر (أمية بن أبي الصلت) ، ذكر أنه مدح به بني إياد[3] . ومعنى هذا ، أن (بني إياد) كانوا قد عُرفوا بالكتابة في العراق ، ولهذا وضعوا هذه القصة في كيفية نشوء الكتابة العربية ، وإياد من القبائل العربية القديمة التي نزحت من البحرين الى العراق .

وقد كان العرب في الأنبار ، والحيرة ، وعين التمر والمواضع الأخرى يحتمون بأبنية محصنة ، يقيم بها ساداتهم ، وتكون مواضع دفاعهم أيام الخطر ، يقولون لها (القصور) . وقد كانت الحيرة مؤلفة من جملة (قصور) ، ولا يزال عرب الفرات يطلقون لفظة (القصر) على المواضع الحصينة المقامة في البادية ، لصد غارات المهاجمين ، مثل (قصر الأخيضر) ، و (قصر العين) ، في ناحية (عين التمر) . وتحتمي الكنائس وبيوت الناس بهذه القصور ، ولما فتح (خالد ابن الوليد) (عين التمر) ، بعث الى (كنيسة اليهود ، فأخذ منهم عشرين غلاماً وصار الى الأنبار »[4] ، وهو خطأ ، لأن الذي نجده في الموارد الأخرى ، ان (خالد بن الوليد) ، لما فتح حصن (عين التمر) وجد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم ، فكان من ذلك السبي : (حمران بن أبان بن خالد) التمري،

---

١ الاغاني (٢/١٠١) .
٢ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الانبار) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٤٨) .
٤ اليعقوبي (٢/١٢٣) ، (النجف ١٩٦٤) .

و (سيرين) أبو (محمد بن سيرين) المشهور بتفسير الأحلام ، و (أبو عمرة) جدّ (عبد الأعلى) الشاعر ، و (يسار) جدّ (محمد بن اسحاق) صاحب (السيرة) ، و (نصير) أبو (موسى بن نصير)[1] ، وذكر (الطبري) أن (خالد بن الوليد) وجد « في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم ، وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، فقسمهم في أهل البلاد[2] . وقد كان كل هؤلاء من الكتّاب القارئين للانجيل الدارسين لعلوم الدين ، فأسلموا وبرز أبناؤهم في المجتمع الاسلامي .

وفي خبر (وفد نجران) الذي قدم على الرسول ، إفادة بوجود مواضع لتعليم أمور الدين ، وتثقيف الناس بما يلزم من ثقافة ، فقد ورد أن أسقف نجران كان حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم (صاحب مدراسهم)[3] ، أي الموضع الذي يتدارسون فيه ، والغالب أن يكون ذلك المكان في الكنيسة على الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، كما صار المسجد موضعاً للتعليم .

وقد كان يهود الحجاز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بكنيسهم كتّاباً يعلمون به أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كما كان أحبارهم يتخذون به مجلساً لتعليم اليهود أمور دينهم وللافتاء بينهم في أمور الشرع ، وفضّ ما قد يقع بينهم من خلاف . وكذلك كان شأن نصارى العرب اتخذوا من كنائسهم مواضع للتدريس ولتعليم القراءة والكتابة كالذي رأيناه بين نصارى العراق . ولا استبعد احتمال اتخاذهم مدارس في قرى البحرين ، التي كانت بها جاليات نصرانية كبيرة وكذلك في اليمامة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وأصول الدين .

مواد الدراسة :

لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين لنستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية ، غير أننا اذا ما

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤٨) .
٢ الطبري (٣/٣٧٧) .
٣ طبقات ابن سعد (١/٣٥٧) (طبعة صادر) .

أخذنا بما جاء في الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم عند نصارى العراق وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للتلاميذ ولطلاب المدارس العالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد وان تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت . من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادىء الدين . وهي المواد الرئيسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي لا تزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم .

والعادة في الكتاتيب حتى الآن في تعليم الخط للأطفال ، أن يخط المعلم أو (خليفته) أو من يقوم مقامه من التلامذة المتقدمين ، سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية ، لينقش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الاجادة جهد امكانه في كتابتها لتقوية يده على الخط . وقد كان العبرانيون يعلمون الآية : « رأس الحكمة مخافة الرب » ، « رأس الحكمة معرفة الله » ، « مخافة الرب رأس الحكمة »[1] ، في أول ما كانوا يعلمونه لتلامذتهم[2] . ويعلمونهم أمثال ذلك من الحكم والأمثال الواردة في التوراة . ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال والحكم في مقدمة ما كان يدرسه المعلمون اليهود في مستوطناتهم في بلاد العرب بتيماء ووادي القرى وقرى المدينة .

وورد ان نصارى العراق ، درسوا في مدارسهم لغة بني إرم ، لغة الثقافة والعلم آنذاك ، درّسوا مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ، وعلّموا معها مبادىء العربية وقواعدها وآدابها في الأرضين التي كانت غالبية سكانها من العرب[3] . ونجد في الموارد النصرانية اشارات تشير الى تدريس العربية في الأنبار وفي الحيرة . ولا يعقل أن يكون المراد من العربية ، الكتابة والقراءة بها فقط ، بل لا بد وأن يُعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قط القلم ورسم الحروف ، وأنواع الخطوط ، ثم الأمثال والحكم ، وقواعد اللغة وآدابها ، أي منهج المدارس المقرر في الشرق الأدنى في ذلك العهد . وقد كان رجال الدين يسيرون عليه ويتبعونه في مدارسهم . وكان لهم علم بقواعد وبلغة بني إرم .

---

١ سفر الامثال ، الاصحاح الاول ، الآية ٧ .
٢ Hastings, p. 204.
٣ تاريخ كلدو وآثور (٢/٧) .

أما عن تعليم الأطفال في جزيرة العرب ، فلا نستطيع التحدث عنه بصورة جازمة لعدم ورود شيء عن ذلك في الكتابات الجاهلية أو في روايات أهل الأخبار. ويمكن أن نقول باحتمال تعليم الأطفال في المواضع التي وجدت النصرانية اليها سبيلاً ، مثل مدينة (نجران) وبعض مواضع من سواحل الخليج ، على النمط الذي كان متبعاً عند نصارى العراق وبلاد الشأم من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وتحسين الخط ومبادىء أمور الدين . ثم المعارف العالية مثل اللغة والعلوم اللاهوتية والطب وما شاكل ذلك ، للمتفوقين من الطلاب من أصحاب المواهب والقابليات، وذلك لأن الكنيسة كانت تتبع نظاماً واحداً في التعليم ، ولأن الذين كانوا يبشرون بالنصرانية بين العرب ، كانوا من أهل العراق في الغالب ، وقد درّسوا عرب العراق وعرب مواضع أخرى في جزيرة العرب ، وقد درسوهم على طريقة تدريس الكنيسة الشرقية ، فيحتمل لذلك أن يكون التدريس على نمط واحد في مدارس الكنيسة ، ولا أستبعد احتمال تدريس السريانية لهؤلاء الطلاب ، باعتبار انها لغة الدين وتساعد في فهم الأناجيل والكتب النصرانية والعلوم .

وقد ورد أن : عمر بن الخطاب ، كان يقول في تربية الأولاد وتثقيفهم : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، وروّوهم ما يجمل من الشعر »[1] . وذكر أنه كتب الى الأمصار: « أما بعد ، فعلموا أولادكم العومَ والفروسية ، ورووهم مـا سار من المثل وحَسُنَ من الشعر »[2] ، وأن الرسول دعا لمعاوية ، فقال : « اللهم علمه الكتاب والحساب »[3] . ويظهر أن هذا التوجيه في تربية النشء كان معمولاً به عند الجاهليين .

ويظهر أن الحث على تعلم السباحة ، إنما ظهر في الاسلام ، بعد الفتوح ، وذلك بعد أن اتصل العرب بالأنهار الواسعة العميقة وبالبحار ، فأجبرهم الواقع على تعلم العوم . ونجد (الحجاج) يقول لمعلم ولده : « علّم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم »[4] .

---

١ المبرد ، الكامل (١/١٥٥) .
٢ البيان (٢/١٨٠) ، (٢/١١٦) ، (القاهرة ١٩٣٢ م) .
٣ البيان (٢/ ١١٦) ، (١٩٣٢ م) .
٤ البيان (٢/١٧٩) .

وقد كان (عمر) يتهيب البحر ، فأوصى قواد جيشه بالتأني في ركوب البحر، خشية غرق المسلمين .

والمثل والشعر من أهم المواد التي كان يعتني بها الجاهليون . وكان أهل الكتاب يعتنون بالمثل وبما ورد في الكتب المقـدسة من حكم ، وبالشعر كذلك في تعليم أطفالهم في الكتاتيب .

وذكر (الهمداني) ، أن (عمر بن الخطاب) ، قـال : « تعلّموا من النجوم مـا تهتدون به ، ومن الأنساب ما تعارفون به وتواصلون عليه ، ومن الأشعار ما تكون حِكَماً ، وتدلكم على مكارم الأخلاق »[1] .

ويقوم بالتعليم معلمون . امتهنوا التعليم واتخذوه حرفة لهم . ومنهم من اتخذه حرفة رئيسية له ، إذ كان يمارس حرفاً أخرى ، ليتمكن بذلك من إعاشة نفسه. ولما كان التعليم الابتدائي الذي يقوم على تعليم الخط والقراءة والكتابة وبعض المبادىء الأخرى شيئاً بسيطاً لا يحتاج الى علم وكبير ومعرفة ، لذلك لم يشترط في متعاطيه أن يكون من أصحاب العلم ، بل قام به من وجد في نفسه قابليـة تعليم الأطفال من رجال الدين ومن غيرهم ، على نحو ما نجده في المدارس القديمـة التي تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة لهذا اليوم .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهليين . لذلك لا نستطيع أن نذكر اسم معلم من معلمي الجاهلية بالاستناد اليها . أما أهل الأخبار ، فقـد تعرض نفر منهم لذكر بعض المعلمين الذين عاشوا قبل الإسلام ، والـذين أدرك بعض منهم الإسلام . فذكر (محمد بن حبيب) في الفصل الذي سماه : (أشراف المعلمين وفقهاؤهم) ، اسم (بشر بن عبد الملك السكوني) أخـو (أكيدر ابن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) ، فذكر أنه كان في جملة المعلمين[2]. واليه ينسب أهل الأخبار نشر الكتابـة بمكة على نحو ما بينت ذلك في موضوع تأريخ الخط .

وأشار (ابن حبيب) الى (أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو جاهلي ، على انه من أشراف المعلمين . كما أشار الى (عمرو بن زرارة بن عدس

---

١ الاكليل (١/٦ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٥) .

ابن زيد) ، وهو جاهلي كذلك في جملة من أشار اليهم من المعلمين . وذكر انه كان يسمى (الكاتب) . وأشار أيضاً الى (غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي) ، وهو من المخضرمين . على انه كان من أشراف المعلمين[1] . وهو من الشعراء الحكماء ، إذ كان أحد حكام (قيس) في الجاهلية . وكان أحد وجوه ثقيف، وقيل انه أحد من نزل فيه : « على رجل من القريتين عظيم » ، وانه كان صاحب تجارة،وقد سافر في قوم من تجار ثقيف وقريش وعلى رأسهم (أبو سفيان) الى العراق ، للتجارة ، فوصلوا الى (كسرى) فتكلم معه باسم التجار ، فأعجب به ، واشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه من بنى له اطماً بالطائف ، فكان أول اطم بني بها . وذكر ان كسرى لما كلمه ووقف على حكمته قال له: « هذا كلام الحكماء ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم فما غذاؤك ؟ قال : خبز البر ، قال : هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر »[2] . في حديث يقصه أهل الأخبار وكأنهم كانوا شهود عيان .

ولا بد وأن يكون في ثقيف قوم كانوا مهرة في الكتابة ، لهم خط حسن وإملاء صحيح ، وذلك فيما اذا أخذنا بصحة الأخبار الواردة عن تدوين القرآن وجمعه من قولهم إن الخليفة (عمر) أو (عثمان) ، قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، إذ لا يعقل النص على أن يكون الكاتب من ثقيف من غير سبب ، اللهم اذا اعتبرنا الخبر من الموضوعات التي صنعت في أيام الحجاج ، للتقرب اليه ، ولرفع شأن ثقيف ، بعد أن ظهرت أخبار في أيامه ، رجعت نسب ثقيف الى قوم ثمود ، وصيرت (أبا رغال) خائن العرب الى غير ذلك من أخبار تحدثت عنها في أثناء حديثي عن ثمود وعن قبيلة ثقيف .

وكان (جفينة) العبادي من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً ، قدم المدينة ، وأخذ يعلم بها الكتابة في أيام الخليفة (عمر) . وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص. فاتهمه (عبدالله بن عمر) بمشايعة (أبي لؤلؤة) على قتل أبيه فقتله[3] .

---

١ المحبر (٤٧٥) .

٢ الاصابة (١٨٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٦٩٢٦) ، الاستيعاب (١٨٦/٣ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) .

٣ فتوح البلدان (٤٦٠) ، (أمر الخط) ، ابن سعد ، الطبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) ، الطبري (٤٢/٥) .

وورد في كتب الحديث « عن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي ، أنه قال : أتانا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه باليمن معلماً وأميراً »[1] . وقد أرسل الرسول معاذاً الى اليمن ليعلمهم الفرائض وأحكام الدين . وإذا صح النص ، صار دليلاً على شيوع لفظة (معلم) في ذلك العهد .

ووردت لفظة (المعلم) في رسائل (عمر) الى عماله ، ففي رسالة له (الى أهل الكوفة) : « إني قد بعثتُ اليكم عمّار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً »[2] . وأراد بلفظة المعلم ، من يعلم الناس ويرشدهم ويفقههم في أمور الدين . وكانوا يطلقون على من يعلم الكتابة في (الكتاب) : معلم كتاب. والكتّاب والمكتب ، الموضع الذي يتعلم به .

ولست أعلم شيئاً عن مدى تقدم علم الحساب عند الجاهليين . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو انهم كانوا يعلّمون أولادهم مع الخط مبادىء الحساب المعروفة، وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وذلك لحاجتهم اليها في حياتهم اليومية ، ولا سيما بالنسبة الى التجار أصحاب المصالح الكبيرة ، إذ تدفعهم الحاجة الى ضبط أعمالهم وحسابهم . وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين استعملوا حساب عقود الأصابع في حسابهم ، فوضعوا كلاً منها بإزاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الاصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة . وقد أشير الى حساب اليد في الحديث ، كما استعملوا العدّ بالحصى ، وبه يحسبون المعدود[3] . والعدّ برسم خطوط ، فيدل كل خط على عدد ، ومجموع الخطوط هو المعدود .

وورد في الأخبار ان الرسول دعا لمعاوية بقوله : « اللهم علّمه الكتاب والحساب »[4] ، وقد نعت بأنه كان من الكتبة الحسبة الفصحاء[5] ، والحديث المذكور من أحاديث أهل الشأم[6] ، ولهم أحاديث أخرى في الثناء على (معاوية) ، وهي

---

١ ارشاد الساري (٩/٤٢٩) .
٢ خورشيد احمد فاروق ، حضرت عمر (١١٦) ، (رقم ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٧٩ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .
٥ الاصابة (٣/٤١٢) (رقم ٨٠٧٠) .
٦ الاستيعاب (٣/٣٨١) (حاشية على الاصابة) .

من الأحاديث التي أوجدتها العصبية السياسية ، على نحو ما نجد من أحاديث في (عبدالله بن عباس) وفي العلويين . وقد روي الحديث المذكور في حق أشخاص آخرين . وقد وضعت أحاديث في مدح معاوية وبني أمية . وأرى أن الحديث المذكور وضع في مقابل حديث « اللهم علمه الحكمة » ، الذي روي أن الرسول قاله في (ابن عباس) ، وحديث : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أو « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » ، و « اللهم بارك فيه وانشر منه » ، وأحاديث أخرى ذكر أنها قيلت فيه[1] .

وأما ما نسب الى الرسول من قوله : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فإنه حديث ضعيف ، وقد ورد أيضاً أن رجلاً قال : ما كنت أظن أن عدداً يزيد على ألف[2] ، وهو قول ينطبق على حالات فردية لأعراب ، ولا يمكن أن ينطبق بالنسبة للحضر ، ولا سيما لأهل مكة الذين كانت لهم تجارة ضخمة وقوافل تذهب الى مختلف الأنحاء ، تحمل تجارة تقدر أثمانها بعشرات الألوف ، فهل يعقل صدور مثل هذا الحديث من الرسول ؟

وقد كان الجاهليون يتراسلون بينهم ، فيكتبون كتباً الى من يريدون مراسلته. والكتاب هو صحيفة قد تكون من جلد ، أو من مادة أخرى . وقد ذكر أن الرسول كتب كتاباً الى (بني حارثة بن عمرو بن قريظ) ، فأخذوا الكتاب وغسلوه، ثم رقعوا به دلوهم[3] . ويدل هذا على أن الكتاب كان صحيفة من جلد .

والرسائل من حقول التدوين المهمة عند الجاهليين . وهي رسائل قد تكون في أمور خاصة ، كرسائل أب الى ابنه أو العكس ورسائل أصدقاء وأقارب من ذوي الأرحام ، وهي تتناول مسائل شخصية خاصة تهم المتكاتبين . وقد تتناول الأحداث التي يكون لها شأن عند الناس وخطر ، فيكتب المتكاتبون عنها ، لما فيها من أهمية ولذة بالنسبة لهم . وقد تكون الرسائل إخبارية ، كأخبار عن تجارة ومعاملة أو عن حدث وقع أو غزو أو قرب وقوع حرب أو اخبار بهجوم عدو ومقدار قوته وما شاكل ذلك من أمور ، ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للمرسل اليهم.

---

١ الاصابة (٢/٠٠٠) .
٢ الاحكام السلطانية (١٩٢) .
٣ امتاع الاسماع (١/٤٤١) .

ونجد في كتب أهل الأخبار صور رسائل في أمور ذات طابع إخباري . منها رسائل دوّنت بعبارات واضحة صريحة ، يظهر أن أصحابها كانوا مطمئنين من عدم إمكان سقوطها في أيدٍ عدوة فتقف على ما جاء فيها ، لذلك كتبوها بعبارات مفهومة مكشوفة . ومنها ما كتبت شعراً كالذي روي من ارسال شعر كتبه (لقيط بن يعمر الإيادي) لقومه يحذرهم فيه من كسرى[1] . أو نثراً وقد كتبها أصحابها على شيء لا يلفت النظر ، كحدوج الجمال المسافرة الى جهة معينة ، لتقرأ هناك ، أو رسائل لا تلفت النظر ولكنها ذات معانٍ مفهومة عندما ترسل اليه ، وقد تحمل الرسالة لرسول لينقلها شفاهاً الى من يرادُ اخبارهم خبراً ، وذلك في الأمور الهامة بالطبع ، التي لا يمكن الإفصاح عنها ، لما لها علاقة بحروب أو غزو أو وضع أسير واقع في عذاب أسر آسريه ، ويريد ابلاغ أهله بذلك ليخلصوه من وضعه السيء .

ومن رسائل الإخبار : الرسائل التي كتبها المسلمون المتخفون أو المشركون الميالين للمسلمين على قريش ، يخبرون فيها الرسول وأصدقاءهم المسلمين بأمر قريش وعورتهم واستعدادهم ليكونوا على حذر منها ، والرسائل التي كتبها بعض المسلمين الذين لم يكن الاسلام قد تمكن بعد من قلوبهم ، أو كتبوها شفقة لبعض أصدقائهم من المشركين عن الاسلام والمسلمين . ومنها كتاب (حاطب بن أبي بلتعة) الى صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم » . وأعطى الكتاب الى امرأة من مزينة ، وجعل لها مبلغاً من الدنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وسلكت على غير نقب ، فبلغ الرسول أمرها ، فأرسل من قبض على الرسالة . وتوسل حاطب الى الرسول ، بأن يعفو عنه ، لأنه كان رجلاً ليس له في القوم أصل ولا عشيرة ، فصاروا له أهلاً واعتبروة ولداً فصانعهم فعفا عنه . ونزل الوحي في شأنه في سورة الممتحنة[2] .

---

١ ابن قتيبة ، الشعر (٩٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢٠/٢٣ وما بعدها) .

٢ الآية ١ ، امتاع الاسماع (٣٦٣) .

وفي كتب السير والتواريخ إشارات الى مخابرات أرسلهـا مسلمون الى ذوي رحمهم ، يطلبون اليهم الدخول في الاسلام ، وبأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ما بدر منهم من إساءة اليه إن جاءوا اليه مسلمـين ، من ذلك ، ما كتبه (بجير) الى أخيه (كعب بن زهير بن أبـي سلمى) ، يطلب منه الدخول في الاسلام ، والتوبة ، وإلا فمصيره كمصير (ابن خطل) الذي كان يمعن في هجاء الرسول ، فقتل[1] . ومن ذلك كتاب (الوليد بن الوليد) الى أخيه (خالد بن الوليد) ، يدعوه الى الاسلام ، فجاء مسلماً[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة : (باسمك اللهم) ، ويذكر بعضهم ان أمية بن أبـي الصلت كان هو الذي ابتدع هـذه البدعة . فشت بين الناس . وصارت سنّة لأهل مكة في تدوين رسائلهم. فجعلوها في أول كتبهم . فكانت قريش تكتب بها . وبها افتتح الرسول كتبه في بادىء أمره ، ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود ، ثم باسم الرحمن ، بعد نزول سورة اسرائيل ، ثم بسم الله الرحمن الرحيم ، بعد نزول سورة النمل[3] .

وكان من رسم الجاهليين اذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان الى فلان . ونجد هذا الأسلوب في كتب رسول الله[4] .

وتختم الرسالة بختام كاتبها أو بتدوين اسمه في نهايتها . كأن يقول : (وكتب فلان) أو (كتب فلان) . وقد ورد في كتب السير ، ان الرسول حين همّ بتوجيه الكتب الى قيصر وكسرى وغيرهما ، قيل له : إن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم بختم صاحب الرسالة ، فأمر بصنع خاتم له ، ختم به كتبه . وورد ان قريشاً حين ائتمرت بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وكتبت بذلك صحيفة ، ختمت عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] .

---

١ الاصابة (٣/٢٧٩) ، (٧٤١٣) .
٢ نسب قريش (٣٢٤) .
٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٣ وما بعدها) ، آدب الكتاب ، للصولي (٣١) ، الاغاني (٣/١٢٣) ، تفسير الطبري (١٩/٥٩ ومـا بعدها) ، تفسير الطبري (١٥/١٢١ وما بعدها) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٣/١٩٢ وما بعدها) .
٥ امتاع الاسماع (١/٢٥) .

وأشير الى الخاتم في شعر لامرىء القيس . فورد فيه :

ترى أثر القَرْح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس

والجرجس : الشمع ، وقيل هو الطين الذي يختم به ، وقيل هو الصحيفة. وبكل من ذلك فسر قول الشاعر المذكور[1] . ومن معاني (الجرجس) البعوض الصغير[2] . ويظهر ان اللفظة من المعربات ، عربت عن الإرمية . فهي تعني البعوض الصغير ، اذا قيل Gargso ، وهي تعني الصلصال والطين الذي يختم به اذا قيل Garguechto[3] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ختم رسائله (عمرو بن هند)[4] . وذكر علماء اللغة ان خاتم الملك الذي يكون في يده يسمى (الحِلق) . وأنشدوا في ذلك :

وأعطى منا الحلق أبيض ماجد رديف ملوكٍ ما تغب نوافله

كما أنشدوا بيتاً للشاعر جرير ، ذكر فيه (الحلق) : حلق المنذر بن محرق إذ قال :

ففاز بحلق المنذر بن محرق فتى منهم رخو النجاد كريم[5]

وذكر أيضاً ان الحلق خاتم من فضة بلا فص[6] . ويظهر من ذلك ان الملوك، كانوا يصطنعون خاتماً لهم ، يكون دليلاً على صدق رسائلهم وأوامرهم ، يحملونه معه ، أو يودعونه عنه كاتم أسرارهم ، وعلى ذلك جرى الأمر في الاسلام . فقد سار الخلفاء على سنّة الرسول من اتخاذه خاتماً يختم به الرسائل ، والكتب والأوامر ، وبقي الأمر كذلك عند من جاء بعده من الخلفاء .

---

١ ديوان امرؤ القيس (١٠٢) ، (سندوبي) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (٩٧) برواية أخرى ، تاج العروس (٤/١١٨) ، (الجرجس) .
٢ تاج العروس (٤/١١٨) ، (الجرجس) .
٣ غرائب اللغة (١٧٦) .
٤ الاقتضاب ، لنبطليوسي (١٠٤) .
٥ تاج العروس (٦/٣٢٤) ، (حلق) .
٦ تاج العروس (٦/٣٢٤) ، (حلق) .

والخاتم ما يوضع على الطينة وما يختم به . والختام الطين أو الشمع أو الحبر أو أي مادة أخرى تترك أثراً يختم بها على الشيء[1] . وختم الأوراق والرسائل من العادات القديمة المستعملة عند الشعوب . ويقوم الخاتم مقام التوقيع في وقتنا الحاضر. وختم رسالة معناه المصادقة عليها وتصديقها . واستعمل الخاتم في ختم الأوراق العامة والأوراق الشخصية والعقود والمعاملات . وكان الشخص اذا أراد ارسال رسالة ختمها ، ولذلك كانوا يحملون خواتمهم معهم ، إما في جيوبهم وإما في أصابعهم وقد يضعونها في سلسلة يعلقونها حول أعناقهم[2] . .

وقد صنع الخاتم من مواد مختلفة . صنع من ذهب ومن فضة ومن معدن آخر ومن الحجر . وقد كتب على بعض الخواتم اسم صاحبه ، ونقشت أمثلة وحكم وعبارات دينية أو أسماء الآلهة على بعض الخواتم . كما حفرت على بعض منها صور ترمز الى رموز مقدسة أو صور حيوانات . وعثر على خواتم في العربية الجنوبية ، وبها فصوص من أحجار ثمينة من أحجار اليمن الشهيرة . وقد كان يستعملها الناس إذ ذاك في التوقيع على رسائلهم ومخابراتهم ومعاملاتهم . ولا زال الناس يعثرون على خواتم جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، فيستعملونها لتزيين أصابعهم بها .

وبعد أن تختم الرسالة ، توضع داخل ظرف ، حتى لا يطلع عليها أحد ثم يغلق ، ثم يختم على موضع فتحه بالطين أو على المواضع التي يحتمل أن يفتح منها حتى تكون في مأمن تام . فلا يقف عليها إلا من أرسلت له . فإذا وصلته ، ووجد ان خاتمها سليم ، كسره ، ليستخرج الرسالة من ظرفها . وكانت الكتب على هيأة لفائف . وكان من عادة الشعوب القديمة أن المكتوب إذا أريد ارساله الى شخص من طبقة أدنى من طبقة الكاتب ، أي صاحب الرسالة ،أرسل المكتوب اليه منشوراً ، أما اذا كان المكتوب الى شخص مكافيء لصاحب الكتاب أو أعلى منزلة منه ، أرسل مختوماً وموضوعاً في كيس[3] .

ولحماية الأشياء من التطاول والتجاوز عليها لجأوا الى طبعها وختمها ، فختموا

---

١ تاج العروس (٢٦٦/٨) ، (ختم) ، اللسان (١٦٣/١٢) ، (ختم) .
٢ Hastings, p. 833.
٣ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٥٣/٢) .

الأكياس التي تملأ بالنقود أو بأي شيء آخر ، وختموا زق الخمرة حتى لا يتطاول عليه متطاول . قال الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختَم[1]

كما ختموا الطعام بالروسم ، وهو خشبة مكتوبة بالنقر . أو لويح فيه كتاب منقور ، تختم به الأكداس[2] . وقيل له (الروشم) أيضاً في لغة السواد[3] . وكلمة (رشم) ، تعني (كتب) في الإرمية . و (راشوم) ، بمعنى لوح منقوش تختم به البيادر في لغة بني إرم ، Rouchmo ، وتعني علامة[4] .

وكان من عادتهم ختم الأمور المهمة أيضاً خشية ضياعها أو التطاول عليها أو لحفظها . فلما كتب أهل مكة فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يُسلموا اليهم محمداً . كتبوا بذلك صحيفة ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] . ويظهر انهم بعد أن كتبوا الصحيفة وضعوها في ظرف ثم سدّوه وختموا عليه ثلاثة خواتيم ، حتى لا يفتح الظرف . أو انهم طووها بعد أن كتبوها ثم ختموا عليها حتى لا تفتح ، فلما أرادوا فتحها وجدوا انها قد تهرأت وتلفت من فعل لعب الأرضة بها . ويجوز انهم ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، بخواتيم الكتبة الثلاثة الذين نسبت كتابتها الى كل واحد منهم ، بحسب اختلاف الروايات . وهم : منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، أو النضر بن الحارث ، أو بغيض بن عامر بن هاشم .

الكاتب :

والكاتب في اصطلاحنا هو الذي خصص نفسه بالكتابة ، أو من يقوم بعمل

---

١ مصادر الشعر الجاهلي (٧٦) .
٢ تاج العروس (٣١٢/٨) ، (رسم) .
٣ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رشم) .
٤ غرائب اللغة (١٨٣) .
٥ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

كتابي،أو من اشتهر وعرف بحذقه في فن الكتابة. وذكر علماء اللغة أن الكاتبين، هم الكتبة وحرفتهم الكتابة. وذكروا أن الكاتب في أيام الجاهلية : العالم. «وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي. أراد عالماً سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة»[1]. والواقع أن نسبة العلم للكتاب، لم تكن نظرة أهل الجاهلية وحدهم بالنسبة الى كتّابهم، بل كانت وجهة نظر شعوب العالم كلها الى الكتبة في ذلك العهد. لأن أكثر كتاب تلك الأيام كانوا من أبناء العوائل المتمكنة ومن أبناء طبقة رجال الدين، وكانوا يتعلمون الى جانب الكتابة في الغالب علم اللسان، كالعربية بالنسبة الى العرب والإرمية بالنسبة الى بني إرم،وشيئاً من الأدب من منظوم ومنثور وحساب وأمثال وحكم، لذلك يخرج المتعلم، وقد تثقف بثقافة تجعله فوق مستوى أقرانه، فيكون بعلمه هذا أعلم من غيره وأدرك منهم بشؤون الحياة. ومن هنا صار أعلم من بقية الناس. ونظر اليه نظرة تقدير وتبجيل.

ومن هنا نجد أن الأحناف، وهم الدعاة الى الاصلاح والى رفع مستوى الحياة في الجاهلية، كانوا كلهم من الكتّاب بالعربية. وقد نسب إليهم أنهم كانوا يكتبون ويقرأون بالعبرانية أو بالسريانية أو باللغتين أيضاً، كما عرف عن بعض الخطباء والشعراء أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون،ومنهم من كان له اطلاع على الثقافات واللغات الأعجمية حتى بان ذلك على كلامه المنظوم أو المنثور، وخير مثال على هؤلاء : عدي بن زيد العبادي، وأمية بن أبي الصلت والأعشى ولبيد.

وقد عرفت حرفة احتراف الكتابة بين الجاهليين أيضاً، كالذي كان من أمر (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) مع الفرس، وكالذي كان من أمر ابنه عدي نفسه مع الفرس أيضاً، ثم ما كان من أمر ابن عدي معهم. وكالذي كان من أمر (لقيط بن يعمر الإيادي)، وغيرهم. وقد رأينا ان الناس أطلقوا على (حنظلة بن الربيع)، كاتب الرسول (الكاتب)، حتى عرف بـ (حنظلة الكاتب)، لأنه كان قد قضى معظم وقته في الكتابة للرسول، فكان يكتب له اذا غاب كاتب من كتّابه عنه. فهؤلاء اذن، هم كتّاب، صارت الكتابة حرفتهم، ولا بد وأن نتصور انهم كانوا قد أتقنوا حرفتهم لطول مرانهم بها

---

١ تاج العروس (١/٤٤٥)، (كتب).

وخبروها على خير وجه . ومن المؤسف ، اننا لا نملك نماذج من رسائلهم ولا من خطوطهم في هذا اليوم . كما لا نملك من خطوط غيرهم شيئاً ، وسبب ذلك هو ندرة مواد الكتابة وغلائها بالنسبة لذلك الوقت ، فكانوا يغسلون الصحيفة المكتوبة ويمحون ما كتب عليها ، ليكتبوا عليها من جديد ، ثم عدم ادراك الناس إذ ذاك لأهمية وقيمة الوثائق ، حتى بالنسبة الى الوثائق المهمة كرسائل الرسول وأوامره وأحاديثه وأمثال ذلك ، فضاعت الأصول بسبب هذا الإهمال ،وهي أصول سريعة التلف ، لأنها كتبت على الجلود وعلى مواد تبلى بسرعة ، وتحتاج الى عناية وحرص كي تحافظ على حياتها مدة طويلة .

وقد سار الكتاب الجاهليون على الجادة التي سلكها الكتاب الآخرون الكاتبون بالأقلام السامية من عدم وضع علامات للحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء ، بحيث أنهم كانوا اذا كتبوها ، لم يضعوا عليها نقاطاً لتمييز حرف منها عن حرف مشابه له أو علامة أخرى فارقة ، تفرق هذا الحرف عن الحرف الآخر . كما ساروا على الجادة التي سار عليها غيرهم من عدم وضع علامات خاصة بالحركات . فكتبوا ما كتبوا من غير إعجام ولا حركات . تاركين أمر القراءة الصحيحة وفهم المكتوب الى علم القارىء وفهمه وذكائه وحذقه باللغة وبالمهنة . ولعلهم فعلوا ذلك محاكاة لغيرهم مثل الكتبة النبط والآراميين والعبرانيين ، الذين تمسكوا بهذا الأسلوب ، على اعتبار أنه سنة قديمة ورثت عن الآباء ، وقد كتبت بها الكتب المقدسة . أو لأن القارىء يجب أن يكون عالماً بفنه بارعاً به ، فلا يكتب له بما يشعره أن مستواه في فهم المكتوب ، هو مثل مستوى سائر الكتبة ، ممن تعلموا القراءة والكتابة وكفى . فكتبوا من غير اعجام ولا حركات . وقد جعلوا ذلك خاصة في مخاطبة ذوي المكانة والحكم ، أما إذا كان الانسان المكتوب اليه من سواد الكتاب القرّاء ، فكانوا يبيحون لأنفسهم حرية إعجام الكتابة وتحريكها . ومن هنا أيضاً ، ظهرت نماذج من الخطوط ،خصصت بكتاب العامة .

وكانوا يميزون بين الخطوط ،ويرجحون الخط القوي السوي على الخط الضعيف . والخط الجيد هو الخط الذي يجود فيه . ولا يستبعد أن تكون لهم مدارس في كيفية تدوين الخط . فقد أطلقوا على خط أهل الأنبار المشق . وقد عرفوا هذا الخط ، بأنه فيه خفة . ولا يعقل بالضبط أن يكون هذا الخط خطاً رديئاً ولهذا سمي مشقاً ، بل هو طريقة خاصة من طرق رسوم الخطوط التي امتازت بمد

الحروف وبخفتها في الكتابة أي سهولتها ، ولا تزال هذه الطريقة المعروفة بـ (خط المشق) معروفة . وهي تستعمل عند الخطاطين في كتابة بعض الأمور التي يناسبها هذا الخط . ذكر أن الخليفـــة (عمر) ذكره فقال : « شرّ الكتابة المشق وشر القراءة الهـــذرمة »[1] . لما في الاثنين من السرعة والتسرع . فالهذرمة السرعة . وذكر أيضاً أن (ابن سيرين) كره كتابة المصاحف بالمشق[2] .

والنوع الثاني الذي نعرفه من أنواع الخطوط ، هو الجزم . وهـو خط أهل الحيرة . وهو خط المصاحف[3] .

ويجب أن نضيف الى هذين القلمين قلم أهل مكة ، الذي دعاه (ابن النديم) بـ (الخط المكي) ، ثم الخط المدني . وقد ذكر ان ما بعدهما الخط البصري ثم الكوفي . وهما خطان اسلاميان ، وان كنت لا أستبعد من كونهما قد أخـــذا من خط عرب العراق في الجاهلية ، ولعلهما قد طعما بشيء من قلم أهل مكة أو المدينة. وقد وصف (ابن النديم) بعض خصائص القـــلم المكي والقلم المدني ، فقال : « فأما المكي والمدني ، ففي ألفاته تعويج الى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير[4] . ويمكن استخـراج بعض خواص رسم خطوط أهـل الحجاز في القرن الأول للهجرة من الكتابات التي عثر عليها بعض الباحثين في مواضع متعددة من الحجاز ، والتي قد يعثر عليها في المستقبل .

والصفة التي يذكرها (ابن النديم) عن ألفات أهل مكة وأهل المدينة ، تدل على ان أهل المدينتين قد أخـــذوا خطهم من أهل العراق والنبط ، لأن الصورة المذكورة هي صورة كتابة الألف في الخط الشمالي ، ولم يعدل الألف،بحيث صير مستقيماً إلا في الاسلام.

وأنا لا استبعد احتمال تدريس مبادىء اللغات وبينهـــا مبادىء اللغة العربية في الحيرة وفي الأنبار وفي مواضع حضرية أخرى ؛ فليس يعقـــل اقتصار التعليم في هذه المواضع على تعليم الخط والقراءة ثم لا يتجاوزهما الى مراحـل أخرى ومراقي أرفع . خاصة وأن السريانيين كانوا قد اقتبسوا من اليونان اجرومية النحو وأصول

---

١ الصولي ، أدب الكتاب (٥٦) .
٢ تاج العروس (١٠١/٩) ، (هذرم) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .
٣ الاقتضاب ، لابن البطليوسي (٨٩) .
٤ الفهرست (١٤) .

الشعر وفلسفة قواعـــد اللغات بترجماتهم الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وأن جماعة من النصارى العرب كانوا يزورون القسطنطينية وبلاد الشأم ويقرأون الكتب الدينية من آرامية ويونانية للتعلم والتثقف ، وهؤلاء هم الذين تولوا تثقيف أبنائهم العرب وتعليمهم . وأناس من هذا الطراز لا بد وأن يكونوا قد تأثروا بما تعلموه من اليونان ومن السريانية فطبقوه على العربية ، ووضعوا القواعد لصيانـــة الألسنة ولتقويمهـــا ، وسلكوا سبلاً في البيان ترتفع فوق مستوى تفكير السواد والسوقـة بدرجات . وترجموا الموضوعات الدينية ولا سيما الكتب الدينية الى الناس لتفقيههم بأمور دينهم .

ورجل مثل (عدي بن زيد العبادي) ، ولّي ديوان الرسائل والانشاء عند كسرى وهو ديوان مهم ، لم يكن الفرس يسلمون أمره إلا لرجل أديب حاذق، لا يعقل أن يكون مجرد قارىء خطاط ناقش للحروف ، لا بد وأن يكون صاحب فن وحذق له أسلوب في تنميق الكلام والتحبير ، قوي البيان ، يكتب وفق قواعد اللغة وأصولها . درس القواعد والأدب وأساليب العرب والعجم في التعبير والبيان، فصار من ثم كاتباً بالعربية وبالفارسية كما يذكر أهل الأخبار .